القيامة

حكاية أمّ ثكلى

تأليف : بول بورجيه

تعريب : فؤاد افرام البستاني

للروائي الفرنسوي الكبير ، السيد بول بورجيه ، المشهور بدروسه النفسية ، حكاية قصيرة حلل فيها عواطف امّ ثكلى في صباح عيد القيامة ؛ فرأينا ان نعرّبها تعريباً حرفيّاً على قدر الامكان ، ونزفها الى القراء الكرام بمناسبة عيد القيامة المجيد.

ف. ا. ب.

١

سارت البحابات دي فريسْن حزينةً في حديقة منزلها ، فصعدت ببطء مرتفع الهضبة الشجراء المسوّرة ، وتقدّمت الى وسط منبسط مُهّد في ايام اوفر سعادة من يومها ذاك ، فجلست على حجر هناك ، وانبسط امام نظرها مشهد من افسح مشاهد البحر والجبال في مقاطعة بروفنسة ، حتى لُقبت تلك الجهة من ضواحي هْيير بالشاطئ الجميل فدعيت «كوستبيل». كانت رؤوس الصنوبر الحلبي الاصل تبدو ، تحت قدمي السيدة ، مختلفة الارتفاع ، وتتماوج خضرتها اذ يميل بها النسيم الهابّ من الخليج المزرقّ في البعد ، والذي كان محصوراً من احدى جهتيه بطريقي شبه جزيرة جيان الطويلين الدقيقين ، ومن الجهة الاخرى برأس بريغانسون المحصّن. وكان الافق البعيد محجوباً بجزيرة بوركرول وصخورها المفرّضة ، وجزيرة بوركرو ومرقبها ، وجزيرة ليڤان واراضيها البائرة العارية . وعلى شمال السيدة الفتيّة كانت تتسلسل هضبات المور القاتمة ، وفي اسفلها مدينة هْيير تتعصّف منازلها البيضاء . وكانت الشمس المشعّة تغلف ببهاء هذه الغابة ،

وتلك الامواج ، وتلك الجزر ، والهضبات ، وواجهات المنازل البيدة . انها لشمس محيية شمس آخر آذار ، التي كانت تلقي اشعتها بلطف ، على مقربة من السيدة ، على منزلها المدهون باللون الوردي ، وعلى مماشي حديقتها المتصلة بالهضبة ، وعلى ما يرتفع حول هذه الملشي من اشجار السلم المزهرة ، وما يحيط بها من انواع السوسن البنفسجي ، واضراب القرنفل الابيض والاحمر ، وكيات الورود الشاحبة ، وشقائق النعمان المقسمة الاوراق. اما في حرج الصنوبر الصغير ، فكانت نباتات الاريقى المرتفعة كالشجر تميل بعناقيدها البيضاء الشاحبة ، اذا ما هب عليها نسيم البحر ، فتميل نباتات الدفلى بزهورها البيضاء الناصعة. ثم يدفع ذاك النسيم ، مع الاريج البحري ، الشذى القائح من صموغ الصنوبر وزهور الرياحين ، جامعاً اليه عبير النبات البري من عيثران ، وقصاص وما شاكل . وكانت اشكال النبات الغريب عن ذاك الاقليم تظهر غامضة من هنا ومن هناك ، فتبدو سعف النخل العريضة ، واوراق الصبر المحاكية الخناجر المنحنية ، واعواد اليوكا المشابهة اللحى الحادة الاطراف . ومما كان يزيد في روعة مشهد هذا الربيع الذي كاد يكون شرقياً ، فيتم جماله ، ويضيف الى سحره عنصراً من الجاذبية اشرف واطهر ، تلك الرنات التقوية التي كان يرسلها جرس الكنيسة . كانت الكنيسة الصغيرة المشرفة على كل تلك الجهة والمدعوة باسم «سيدة التعزية» الجميل ، تطلق صوتها ، فتتابع تموجاته الفضية الضئيلة في ذاك الهواء الفاتر النير البلسمي المنعش ، وتبشر الملأ بان ذاك الصباح الربيعي المجيد هو ايضاً صباح عيد الفصح ، وان عيد القيامة هذا يتحد كل الاتحاد مع هذا الفرح الشامل بالحياة ، المنتشر في كل مكان حتى ان الطبيعة العجيبة نفسها تظهر ، بهذه الشمس ، بهذا البحر ، بهذه الزهور ، كأنها تعلن هي ايضاً ، انتصار المحبة التي غلبت الموت . . .

٢

ولكن يا للأسف ! ان هذا العيد ، عيد الحياة في الطبيعة والكنيسة ، في السماء المنظورة وغير المنظورة ، هو الذي كان يسبب حزن المرأة الصبية في صباح الفصح العجيب ، اذ بدا شديد الوطأة عليها فهد قواها ، وضاعف اساها . كانت

ترتدي ثوباً من الكريب القاتم اماط جمالها الاشقر اللطيف بنوع من الملاحة الجذابة تدفع الى الشفقة والحنو، واشار الى حداد كان في قلبها اشد أسى وادعى الى اليأس. وكانت عيناها الزرقاوان اللطيفتان تظهران مجروحتين باشمة بهاء ذاك النهار الجميل، بعد ان غلفهما الذبول الاغبر لكثرة ما ذرفتا من الدموع. وكانت كل رنة من رنات الجرس تحجب جبينها الشاحب بفكرة محزنة. كانت قد فقدت ولدها، ولدها الوحيد، لاربعة اشهر خلت؛ فكان جرحها الفاغر يزداد توغلا كلما نظرت الى سحر ذاك الربيع الجديد الذي لن ينظر اليه صغيرها اندري العزيز، وكلما سمعت ذاك النداء المتصاعد نحو اله لم تكن لتبتهل اليه، بل لم تكن لتقدر ان تبتهل اليه، وقد سلب منها وحيدها. فجلست على ذاك المنبسط الذي دبت فيه الحرارة واخذت تلقي، دون اهتمام ولا انتباه، نظرات اليأس والقنوط. فكانت ترتفع امامها، من جميع نقاط الافق العجيب، صور ومشاهد تتبعها مواكب من الفكر تتجمع وتظهر امام المسكينة تفاصيل مصيبتها، حتى البسيطة منها، بوضوح مؤلم. لقد كان مصيبة مؤلمة ذاك الموت الذي كاد يكون مفاجئاً، والذي قصف حياة وحيدها في السادسة من عمره، على اثر التهاب في السحايا لم يمهله الا بضعة ايام. الا ان بعض الظروف الشخصية اكتنفته فزادت ثقل وطأته... وكانت المرأة الصبية تستعيد هذه الظروف واحداً واحداً امام ذاك المشهد المثقل بكثير من الذكريات... تلك المياه المترقرقة في الخليج الساكن هي مياه البحر، البحر البعيد المدى، الذي سار عليه، لعشرة اشهر خلت، لودوفيك دي فرينن، زوجها، قاصداً الى الشرق الاقصى. وقد رافقته ضابطاً للمركب، حتى طولون فشيعته زوجة مضطربة، ولكن اماً سعيدة. اما الآن، وقد اصبحت حاجتها اليه في اقصى المبس ليساعدها على احتمال ذاك الخطب الشديد، فها ان الوفا والوفا من الاميال تفصله عنها! متى يرجع اليها، فيلقي على مسامعها كلمات عذبة تعيد اليها الشجاعة اللازمة حتى تحيي وتقوم بواجبها؟... واي واجب؟ ها ان صوت الجرس، المؤذن بقداس كانت ثورتها الداخلية تمنعها من حضوره، يذكرها به بمنتهى الدقة والوضوح. لو وقفت السيدة دي

فرنسن والتفت نحو الطريق الممتدة من باب مقرها ، منسابةً في الحرج حتى الكنيسة ، لشاهدت مركبة يجرّهـا فرس قصير ، فيها ولدان ارتديا الحداد مثلها : صبيّ في التاسعة من عمره ، وفتاة في الثامنة . كان هذان الصغيران ، غي واليس ، ولدَي زوجها من زوجته الاولى . وكانت اليصابات تذكر ذلك ، وتذكر ايضاً انها ، لما اقترنت بالضابط البحري ، وهو ابن عمها ، كم اخذتهـا الشفقة على هذين اليتيمين ، وكم كانت هـذه الشفقة مخلصة صافية ! وكانت تذكر ايضاً كيف ان ضميرها كان يدفعها بكليتها الى ان تبدل نفسها بأمهما المتوفّاة ، حتى ان الصغيرين ، وقد بلغا التاسعة والثامنة من العمر ، لم يكونا يشكّان في كونها أمهما الحقيقية ! ولما رزقت هي ولدها ، كم كانت تجتهد ، وكم كانت تأخذ نفسها ، حتى لا تفضّله ابداً على الآخرَين ! ولم تكن هذه المساواة لتكلفها العناء الكثير ، لان تلك الرؤوس الشقراء الثلاثة كانت قد تراكضت وتلاعبت وتضاحكت حولها حتى ان قلبهـا انقسم من طبيعته بين الثلاثة . . . ولكن لماذا لم تبقَ الحالة الآن على ما كانت عليه ؟

لماذا ؟ . . . لم يكن على المرأة الحسية الا ان تلتفت نحو شمالها ، نحو ذاك المكان الذي كانت تعرفه حقّ المعرفة ، فتنال الجواب عن سؤالها . هناك ، وراء آخر بيوت المدينة ، منخفض يدلّ في جوف الوادي على مكان المقبرة . فمنذ اليوم الذي نظرت فيه بعينيها — وكانت قد دفعت بها الشجاعة الى هـذا الحدّ ! — التابوتَ الصغير الذي حوى رفات عزيزها اندري ، ينحدر بين الحبال في الضريح المحفور جديداً ، منذ ذلك اليوم شعرت بانفعال فظيع ملك عليها نفسها . وعبثاً جاهدت في سبيل التخلّص منـه ، وعبثاً كانت تجاهد حتى تلك الساعة . بل انها في صباح العيد هذا كانت تشعر بذاك الانفعال على اشدّ تأثيره في قلبها . فلم يكن بامكانها ان تغفر لولدي زوجها ان يظهرا بمظهر السرور والحداثة ، وان يسيرا ، ويتكلما ، ويتنفسا ، بل لم يكن بامكانها ان تغفر لها أن يعيشا ، بينما كان ذاك الصغير ، صغيرها ، متمدداً في قبره دون حراك . فهي لم تقلع فقـط عن محبتها ، بل كانت تشعر من حين الى آخر — فيرتجف اذ ذاك كل كيانها رعبةً وندماً ! — بانها تبغضها ، كما لو كانا اختلسا نصيب

الراجل من السرور والصحة والنور. وكانت كلما سمعتها يدعوانها «ماما!» تشعر برغبة هائلة مزعجة تدفعها الى ان تصيح بها: «اسكتا! لست بامكما...»، حتى لا يمكن لاحد بعد ذلك ان يدعوها بهذين المقطعين اللطيفين، لان ذاك الفم اللطيف العزيز الذي كان له وحده الحق بلفظهما، لن يعود فيدعوها بهما. هذا الحقد الفظيع على الصغيرين الجميلين، كان قد أثر فيها حتى الاعماق في ذاك الصباح. وكانت قد شاءت ان تضع لها بنفسها البيض الفصحي كما كانت تفعل في السنين السابقة. ومن العدل ان ننصفها بذكر هذا العمل، اذ انها كانت كلما عظم في نفسها ذاك الحقد الظلوم، اجتهدت في ألا تظهر شيئاً من آثاره في اعمالها. وعليه، فقد اتى الولدان الى غرفتها صباحاً، فنظرت الى اعينهما وقد لمع فيها بريق الانتظار، والى ايديهما وقد تفتحت لتضم البيض الملوّن، والى وجهيهما وقد ظهرت عليهما امارات الدهش والاعجاب لدى ما قدّمت لهما من الهدايا: فاعطت للصبي دبوساً مجيفاً، وللفتاة سلسلة منتهية بصليب... لله من بريئين ظالمين بل قاتلين! لقد اعملا الخنجر في قلبها لما اظهرا سرورهما الساذج، وفرحهما بالحياة بالوجود في هذا العالم، ذاك الفرح الذي كان يفرح حتى ثيابهما السوداء... عند ذاك دفعت بها الفكر الى الصبي الآخر فشاهدته كانه يلومها على نسيانه، بعينيه الجافتين الذابلتين. فتصاعدت الى حلقها أنة شديدة، ولكنها ضبطتها بما بقي لها من الشجاعة، ثم تركت البيت واتت وحيدة، فجلست على ذاك السطح الخالي، علها تتخلص، وان وقتياً، من ازمة حزنها الشديدة المفاجئة، بعد ان ارسلت غي واليس الى حضور القداس. ولكن... أوَ ما كان ينبغي لها ان تفطن الى ان جرحها الداخلي، عوض ان يضمد ويسكن، سوف ينكأ وتثور آلامه لدى سعادة الطبيعة جمعاء!

٣

كانت مياه الخليج لا تزال تتألق وترقرق، والجزر تنتصب بصخورها البنفسجية اللون على الافق الخالي من الغيوم، والجبال تنبسط بخطوطها اللينة الشائقة، والزهور تنشر عبير شذاها، والصنوبر الحلبي ينخل النور فيصفيه، وينثره هباء ذهبياً لا يمس، والشجيرات الغريبة تخنق مرتجفة تحت تلك السماء.

كما لو كانت تتذكر اقاليمها البعيدة حيث تنمو عناصرها القوية . وكان الجرس وحده قد سكت في برج الكنيسة المخرّم . في صمت تلك البرية البعيدة ، كانت اصوات الاسف واليأس تهدر ، تهدر دائماً وتشتد ، في اعماق قلب الام ، ومعها صوت الثورة ايضاً ، وصوت الحقد ! وكانت جميع الشعائر المنهكة التي كان يثيرها في نفسها التضادّ الظاهر بين عيد الحياة المزدهي حولها وحدادها المديم السلوان ، تتجمع الى عاطفة غريبة لا تقاوم كانت تدفعها الى ان تكره سعادة ولدَي زوجها . فكانت تحسّ ببغض ممزوج بحقد يرتفع من اعماق كيانها ، فتخجل من نفسها ، ولكنها لا تتمكن من التسلط على ذلك . نعم ! لقد كانت تحسد اخا اندري واخته لابيه على هذا الربيع الذي لم يكن ميتها العزيز ليتنشق نسيمه ، كانت تحسدهما على ذاك المستقبل غير المحدود الذي كانت فتوتهما تظهره امام عينيها . وكانت تستغرب ، هي نفسها ، كيف تتمكن من ان تكرههما هذا الكره الهائج حتى الجنون . فلا تجد سبباً لذلك سوى أنها كانت لا تتصوّر هيئة وجهيهما ، الا شعرت بتحولها الى «خالة» جافية تكره ثمرتي زواج بعلها الاول بما لا يمكنها تصوّره في غريزتها من عواطف الحقد الثائر . . . حقاً انها لم تكن بمنصفة ! ولكن هل من انصاف في هذا الكون ؟ حقاً ان ذينك الولدين لم يكونا ليستحقا ذاك الحقد الجائر من امرأة ابيهما ، من تلك التي عهد اليها في حفظهما الاب الغائب ! ولكن هل استحقت ، هي نفسها ، ان يسلب منها ملاكها الصغير على تلك الطريقة الفجائية الهائلة ؟ . . . وهكذا فان تلك المرأة التي كانت في ما مضى تقية لطيفة ، غفورة مخلصة ، والتي كانت لا تزال على تلك الصفات في اعمالها تبعاً للقوة المستحكمة فيها الناتجة عن مزاولة فضائلها السابقة ، تلك المرأة كانت تتأثر بمفاعيل الالم الشديد الحاد فتنحط الى دركات الفساد ، فكان شيطان خبيث حتى الشراسة يضطرب في داخلها ، امام هذا المشهد الذي لم يكن يظهر فيه الا التآلف والسكينة والجمال ، فيدفعها الى لفظ تلك الجملة الهائلة التي القتها بصوت عال ، الى من ؟ أإلى الطبيعة ؟ أإلى الله ؟ أإلى الربيع ؟ . . . فصاحت :

— «آه ! لو مات احدهما ايضاً ، على الاقل ! . . .» (لها تابع)